المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الدار البيضاء-سطات
CRMEF-C.S
Centre Régional des Métiers de l'Education et de la Formation Casablanca-Settat

الدرس اللغوي بين النحو الضمني والنحو الصريح

سعيد العيماري
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الدار البيضاء سطات
الفرع الإقليمي بالجديدة
said.elaimari@gmail.com

مدخل

يطرح الاشتغال على قضايا اللغة إشكالات متجددة ترتبط بطبيعة النظام اللغوي نفسه، وبالطريقة التي يبني بها المتعلم وعيه بالقواعد المنظمة لهذا النظام على وجه الخصوص، ذلك أن كل تفاعل لغوي يكشف وجود مستويات مختلفة من المعرفة، بعضها صريح/ ظاهر ومعلن، وبعضها مضمر/ ضمني يعمل في الخلفية دون أن يحظى بتمثيل صريح في ذهن المتكلم. ولعل هذا التباين بين المستويين يثير تساؤلات حول كيفية تشكل المعرفة بالاستعمال اللغوي، وما إذا كان التحكم في اللغة هو نتيجة وعي مباشر بالقواعد أم أنه نتيجة تراكم تدريجي لممارسات يعاد إنتاجها تلقائيًا. كما يدفع إلى التفكير في حدود التعليم اللغوي عندما يُبنى على تقديم القاعدة وحدها، وفي مدى كفاية هذا المسار لاستيعاب الدينامية الحقيقية للاستعمال اللغوي.

سعيد العيماري- مركز الجديدة

مدخل (تتمة)

إن تناول هذه الإشكالات لا يقتصر على بيان الفرق بين طرائق فهم اللغة أو تعليمها، بل يمتد إلى مساءلة الأسس النظرية التي توجه نظرتنا إلى التعلم والاكتساب. فالتساؤل عن مصدر الصواب اللغوي، وعن الكيفية التي يستدل بها المتعلم على القاعدة وهو يستعملها، يفتح المجال لطرح أسئلة أوسع من قبيل: ما الذي يجعل متعلما قادرا على إنتاج تراكيب سليمة دون وعي مسبق بالقواعد؟ وما الذي يجعل متعلما آخر قادرا على ضبط القاعدة دون أن يستطيع تطبيقها؟ وكيف يمكن للتوجيهات التربوية المتعلقة بتعليم اللغات أن توازن بين هذين المسارين دون أن تختزل اللغة في أحدهما؟

هذه الأسئلة تمثل مدخلًا نقديًا لمقاربة الموضوع الذي يتناول في جوهره اكتساب المعرفة اللغوية واستعمالها، وحدود ما تقدمه النظريات التي تسعى إلى تفسيرها.

ما النحو؟

علم بقواعد مستنبطة من استقراء كلام العرب، وموصِلة إلى معرفة أحكام أجزاء هذا الكلام الذي تركب منها

مجموعة من القواعد المنطقية لها مقدمات وشروط ونتائج

مثال

كل كلمة صح اقترانها بزمن فهي فعل.

مقدمة — شرط — نتيجة

قواعد النحو

صريحة/ ظاهرة

ضمنية/ مضمرة

القواعد الصريحة

هي قواعد صاغها النحاة بشكل منهجي واعٍ، ودونت في أبواب مدرجة في علمي النحو والصرف (الإعراب، البناء، المرفوعات، المنصوبات، المجرورات، أنواع الاسم، أنواع الفعل)

اعتُمِد في صياغتها على أصول نحوية: السماع، الإجماع، القياس، الاستصحاب.

وُضعت لها قواعد وحدود وقيود مضبوطة تربط سلامة الاستعمال اللغوي بالخضوع للقاعدة.

مَثَّلَتْ معرفة مصرحا بها قابلة للشرح والتفسير، فهي تكتسب وليست ملكة.

يمكن للمتعلم استحضارها وذكرها وتمثيلها من خلال تمارين تطبيقية.

المقاربة البيداغوجية للنحو الصريح

- التدريس عبر الشرح المباشر
- تقديم القاعدة في صيغة تقريرية مع أمثلة تطبيقية، ثم بعد ذلك الانتقال إلى تمارين تقيس قدرة المتعلم على توظيفها وتطبيقها.
- الاعتماد على التلقين وبناء المفاهيم باعتبار الوعي بالقاعدة شرطا للتطبيق
- توظيف أمثلة معيارية خاضعة للقاعدة
- الاستناد إلى الإدراك الواعي للبنية اللغوية لتُستثمر في الاستعمال اللغوي.
- تقييد سلامة الاستعمال اللغوي من الأخطاء بخضوعه للقاعدة.

القواعد الضمنية

هي نظام مضمر يحكم الاستعمال اللغوي عند المتكلم دون أن يكون له وعي مسبق بمفهومه وصياغته وقيود استعماله.

اعتمد عليها في مرحلة ما قبل التقعيد عند القدماء بالتركيز على السماع والرواية لإثبات الصيغ والتراكيب.

تظهر فيها قدرة المتكلم على التمييز بين الخطأ والصواب وتركيب الجمل السليمة وفهم الدلالة السياقية للاستعمال اللغوي دون حاجة إلى استحضار القاعدة.

مَثّلَتْ بنيةً ذهنيةً مكتسبةً عبر الاستعمال اللغوي والتفاعل والاستماع والتكرار، وهي بمثابة كفاية لغوية وقدرة تتشكل تدريجيا عبر الممارسة.

المقاربة البيداغوجية للنحو الضمني

- التدريس عبر التفاعل واستعمال اللغة في وضعيات مختلفة.
- اكتساب القاعدة يتم عبر الأنشطة التواصلية والتفاعلية المقدمة في نماذج لغوية متعلقة بسياقات محددة، تعالج ذهنيا ويعاد إنتاجها تلقائيا.
- الظواهر اللغوية تكتشف عبر الاستعمال وليس التلقين.
- لا تقدم اللغة مصاغة في شكل قواعد جاهزة.
- المهارات اللغوية تطور بشكل تدريجي استنادا إلى الاكتشاف والتواصل والتعلم القائم على المهام.

العلاقة بين النحو الضمني والنحو الصريح

النحو الضمني سابق للنحو الصريح: اللغة تستعمل قبل إخضاعها لنظام معياري

النحو الصريح يكشف البنية المنطقية للغة ويوفر للمتعلم أدوات الوعي باستعمال اللغة وتحليلها

تعلم القاعدة وضبطها لا يفضي إلى امتلاك الملكة اللغوية، وإنما سماعها وممارستها هما اللذان يرسخان البنية اللغوية في الذهن

الطفل يكتسب اللغة ضمنيا لكن النحو الصريح يوجه انتباهه ويساعده على تثبيت القاعدة في الاستعمال اللغوي والوعي بوظائفها.

النحوان الضمني والصريح متكاملان: الأول مهاري تلقائي، والثاني معرفي مهاري؛ تفاعلهما داخل تجربة التعلم يسهمان في تعلم اللغة بشكل سليم.

العلاقة بين النحو الضمني والنحو الصريح في ضوء الديداكتيك

علاقة تحدد مسار التعلم وفعاليته؛ تتعلق بالاختيارات البيداغوجية التي ترتكز على مبدأ الانغماس اللغوي بما يضمن تقديم البنية اللغوية مضمرة دون التصريح بالقواعد في المستويات التعليمية الأولى/ الدنيا.

التصريح بالقاعدة في المستويات العليا يمثل أداة لتوجيه انتباه المتعلم نحو الخصائص البنيوية للغة، وليست بوصفها غاية في حد ذاتها؛ وهو ما يجعل المعرفة اللغوية ترتكز على تقديم أمثلة واستكشاف الظاهرة اللغوية فيها وملاحظتها وتحليلها لاستخلاص القاعدة والوعي بها، ثم بعد ذلك الانتقال بها إلى مستوى الإنجاز في الاستعمال من خلال الأنشطة التفاعلية التي تجمع بين القدرة والإنجاز/ المعرفة بالنظام اللغوي واستعماله.

اكتساب المهارات اللغوية يبنى عبر الدمج والتفاعل
بين التعلم الصريح للقاعدة والممارسة الضمنية لها في الاستعمال اللغوي

سعيد العيساري- مركز الجديدة

المرجعيات النظرية للنحو الضمني والنحو الصريح

يمثّل التمييز بين النحو الصريح والنحو الضمني إحدى القضايا المركزية في التفكير اللغوي القديم والحديث، إذ يكشف التمييز بينهما عن اختلاف جوهري في طريقة تمثل المتكلمين/الناطقين داخل جماعة معينة لقواعد لغتهم، وفي طبيعة المعرفة التي تحكم إنتاجهم اللغوي وفهمهم للتراكيب. فالدارس حين ينتقل من ملاحظة القواعد كما تجري في الممارسة اللغوية إلى صياغتها في نماذج نظرية، يجد نفسه أمام مستويين مختلفين من التنظيم النحوي: مستوى قائم في الذهن يعمل بصورة غير واعية، ومستوى آخر مصاغ بدقة في شكل قواعد قابلة للوصف والتفسير. من هنا، تتولد أسئلة مرتبطة بفهم كيفية اشتغال النظام اللغوي: هل يسبق الوعي بالقواعد الاستعمالَ اللغوي؟ وهل صاغ النحاة القدماء قواعد اللغة على أساس معرفة حدسية أم على أساس بناء نظري صريح؟ وما مدى قدرة المرجعيات اللسانية الحديثة على إعادة تفسير هذا التمييز انطلاقاً من نماذجها الخاصة في اكتساب اللغة وتمثيل البنى الذهنية؟

هل يسبق الوعي بالقواعد الاستعمالَ اللغوي أم أن الممارسة تنتج معرفةً لاحقة بالقواعد اللغوية؟

اتجاه يرى أن الممارسة تسبق الوعي: أولوية النحو الضمني

المعرفة اللغوية ناتجة عن استعمال اللغة في سياقات واقعية، بحيث يتشكل لدى المتكلم نظام نحوي ضمني قبل أن يكون قادرا على إدراكه أو وصفه. فالأطفال مثلا يلتقطون البنية النحوية للغتهم الأم بيسر، ويستخدمونها على نحو دقيق قبل أن يتعلموا أي قاعدة، بل إنهم يخطئون أحياناً أخطاء تدل على وجود نظام استنباطي داخلي يشتغل دون تعليم خارجي مصرح به للغة.

اتجاه يرى أن الوعي بالقواعد شرط لاكتساب اللغة: أولوية النحو الصريح

يمكن التمييز هنا بين الاكتساب الطبيعي للغة الأم والتعلّم المدرسي للغة الثانية أو لقواعد اللغة. فعلى مستوى التعليم، يُعدّ الوعي بالقواعد ضرورياً لتصفية الاستعمال اللغوي من اللحن وضبطه، خاصة في السياقات التي تتعدد فيها اللهجات أو حينما لا يكون هناك احتكاك يومي بالنموذج الفصيح. فالنحو وضع "لضبط اللسان"، أي أن النحو الصريح لم يكن سابقاً للممارسة، لكنه صار أداة لتصويبها. وعليه، نقول إنه في اكتساب اللغة الأم: الممارسة تسبق الوعي، أما في تعلم القواعد: الوعي يأتي لتقنين الممارسة وتوجيهها.

هل صاغ النحاة القدماء قواعدهم بناءً على معرفة حدسية أم استنادا إلى نموذج نظري؟

المعرفة الحدسية المترسخة في الملكة/ القدرة	اتجاه يرى أن الوعي بالقواعد شرط لاكتساب اللغة: أولوية النحو الصريح
كان النحاة الأوائل، يعتمدون على الاستماع في التمثيل للنسق الفصيح الذي استقر في الاستعمال ، وهم في ذلك يوظفون "حسّا لغويا فطريا"/ "ذوقيا" تشكل بفعل الانغماس المستمر في اللغة. وقد جعلهم هذا الحسّ يصدرون أحكاما تحولت إلى قواعد، ولنا في واقعة سيبويه مع الكسائي في تحكيم الأعراب بينهما لما عرف بين النحاة بالمسألة "الزنبورية" خير مثال على اعتماد الحدس/السماع في الحكم بالفصاحة والخضوع للنظام اللغوي.	وظّف النحاة أدوات منهجيةً قائمة على منطق دقيق في تنظيم الأبواب وصياغة القواعد اعتمادا على التعليل. ووظفوا القياس لتجاوز الوصف إلى التعميم من خلال استنباط "قواعد عامة" بناء على المنهج التعليلي الذي وضع لظاهرة محددة. وقد استندت أغلب المؤلفات النحوية إلى "أصول عقلية" لصياغة القواعد مما كشف عن ربط اكتساب اللغة بالمعرفة النظرية بقواعدها وبالتالي الاستعمال السليم للغة وفق النظام الذي تخضع له.

سعيد العيماري- مركز الحديدة

ما مدى قدرة اللسانيات الحديثة على إعادة تفسير التمييز بين النحو الصريح والضمني؟

إعادة تعريف طبيعة المعرفة اللغوية

قدّم تشومسكي تمييزا بين "القدرة/الكفاءة" و"الإنجاز/الأداء"، حيث اعتُبرت الأولى تجسيدا للنحو الضمني، بينما مثّل الثاني مظاهر الاستعمال. وتبعا لذلك شكل النحو الضمني نظاماً ذهنيًّا مستقلاً عن الوعي، يمكن الكشف عنه عبر النمذجة وليس عبر الاستعمال الظاهر.

توضيح آليات اشتغال النحو الضمني

يكتسب الطفل القواعد من صيغ لم يسمعها من قبل، مما يدل على وجود عمليات "تعميم" لا تستند إلى حفظ الأمثلة فقط. وقد مكّن ذلك من تفسير كيفية بناء النحو الضمني بطريقة لم تكن متاحة للتراث النحوي الذي اعتمد على الملاحظة لا التجريب. وبينت الأبحاث المتعلقة بالإدراك اللغوي أن الدماغ يخزن أنماطاً تركيبية معقدة دون وعي، وأن بعض جوانب الاستعمال لا يمكن وعيها بسهولة حتى عند المتعلمين.

إعادة تأطير النحو الصريح

تعتبر اللسانيات الحديثة النحو الصريح صياغة نموذجية "تعليمية للقدرة اللغوية، لا مرادفاً لها. أي أن النحو الصريح أصبح تمثيلا للنحو الضمني وليس بديلا عنه. وقد أتاح هذا الفهم تحليل العلاقة بين هذين المستويين:

النحو الضمني = قدرة ذهنية.

النحو الصريح = وصف لهذه القدرة.

سعيد العيماري- مركز الجديدة

النظام اللغوي (الضمني والصريح) في مرجعية اللسانيات التوليدية

كل متكلم لغة طبيعية يمتلك مخزونا ذاكريا غير واع يجلي معرفته لتلك اللغة وملكته فيه.
يمثل هذا المخزون الثروة المفرداتية المخزنة، وجهاز قواعد نشيط يرسم أسس تأليف هذه الأبجدية.

الكفاية اللغوية التي يمتلكها المتكلم تمثل بنية ذهنية داخلية تعمل غالبا من دون وعي صريح بها لدى هذا المتكلم، وهي بذلك بمثابة نحو ضمني.

القواعد اللغوية التي تقدمها كتب النحو أو الكتب المدرسية تشكل تمثيلا صريحا للنظام اللغوي، وهي بذلك بمثابة نحو صريح.

النظام اللغوي (الضمني والصريح) في مرجعية اللسانيات التوليدية

تبحث التوليدية في التمثيل الداخلي للقواعد التي تحكم أداء المتكلم، ولذلك تميز بين اللغة الداخلية internal language، واللغة الخارجية external language.

النحو الضمني ناتج عن آلية داخلية لاكتساب اللغة، وليس عن مجرد تقليد أو تعلم محض؛ يظهر ذلك من خلال اكتساب الأطفال قواعد معقدة لم تعرض عليهم بصورة صريحة خلال التعرض اللغوي، مما يدعم افتراض وجود قابلية أو بنية فطرية توفر إمكانات لاكتساب قواعد معينة.

النحو الصريح نتاج أدوات وصفية وتفسيرية ليست بالضرورة مطابقة لما هو مخزن في الجهاز الذهني.